الفصل الثالث

الأخلاق في الإسلام : مقدمات أولية

الأخلاق والثقافات الأخرى :

تختلف الأخلاق فى الإسلام عن غيرها فى الديانات أو الحضارات الأخرى . فالأخلاق عند الإغريق تقوم على اللذة والمتعة والسعادة الدنيوية للإنسان . والأخلاق المسيحية تقوم على الاتصال الروحى بالله والمحبة والتسامح بين البشر . والأخلاق فى الفلسفة البراجماسية نفعية ووسيليه وتتغير بتغير الأحوال والظروف فإذا كنا مثلاً نفضل العدالة على الظلم فذلك يرجع فى نظرهم إلى أن العدالة نافعة ومفيدة والظلم ضار وغير مفيد .

وفى مقابل الأخلاق النفعية وهى شخصية فردية تفضل مصلحة الفرد دائماً هناك أخلاق الواجب وهو مذهب الفيلسوف الألمانى المعروف « كانط » (١٧٢٤ - ١٨٠٤) وله باع كبير فى الأخلاق والفلسفة الحديثة . وقد تميز منهجه بنقد العقل وبيان قصوره . وله فى الأخلاق نظرات ثاقبة . والقيمة الأخلاقية حسب هذه المذاهب هى فى ضمير الإنسان ولا وجود لها خارجه . . فالإنسان عندما يسلك وفق أخلاق الواجب فإنه يتسامى ويرتفع فوق ذاته . ويجب أن تكون الأخلاق من أجل الحياة الإنسانية الكريمة وأن يرتفع الإنسان فوق ملذاته ونزواته الشخصية .

والواجب قيمة أخلاقية تقوم على أساس ما ينبغى أن يكون لا ما هو قائم بالفعل . والواجب كقيمة أخلاقية تفرض نفسها على الضمير الأخلاقى وعندها يتحدد سلوك الإنسان وتصرفه . ويسلك حسب تحليله أخلاق الواجب وهو ما يقول به المعتزلة ويتبعهم فى ذلك الفيلسوف الألمانى "كانط" الذى بنى فلسفته الأخلاقية على مبدأ الواجب الأخلاقى . وتتميز الأخلاق فى الإسلام بأنها أخلاق دنيا ودين معاً وهو ما سيأتى تفصيل الكلام عنه .

الأخلاق والواجب :

يعرف أحمد أمين الواجب (الأخلاق : ص ٦٣) بقوله : الواجب كل عمل يتعين عليك أن تؤديه مهما يكن فى ذلك من جهد ومشقة ، لا ترتقب ما يعيده

لك من منفعة أو يجره عليك من مضرة . فهو السلوك الذى يبعثنا عليه الضمير ويحببه لنا القانون الأخلاقى . ويستطرد فيقول إن جمهرة الناس ترى أداء الواجب عملاً شاقاً يصعب عليها وتستثقله . ولكن هناك من الناس من يشعر بأن أداء الواجب سهل عليه لا يجد فيه مشقة ما . فهو لا يتردد فيه ولا يحجم عنه إذا دعا داعيه . وهؤلاء هم أصحاب الضمائر الحية والأخلاق الطيبة والمثل العليا ، المعتصمون بالمبادئ القوية والذين ربوا على أداء الواجب من صغرهم حتى أصبح دينا لهم وجزءاً من خلقهم . ولا يتقدم العالم إلا بأمثال هؤلاء الناس الذين يبذلون كل شئ فى سبيل الواجب مرتاحين غير آسفين .

وكل تقصير فى أداء الواجب أو الهرب منه أو التحايل عليه بأسباب موهة بالحق يعوق تقدم المجتمع ويجعله مضطرباً لا تسير سفينته بانتظام نحو الغاية المقدرة لها .

لماذا كان أداء الواجب عملية شاقة ؟

فى محاولة الإجابة على هذا السؤال نُعوّل على ما يذكره أحمد أمين (الأخلاق : ص ٦٦) عن الأسباب التى تجعل من أداء الواجب أمراً شاقاً . هذه الأسباب هى :

١ ـ أنه كثيراً ما يكون نقيض رغبات المرء وأهوائه وعكس ميوله النظرية ونزعاته المكتسبة ومصلحته الخاصة .

٢ ـ أنه يجشم المرء جهداً فى تنفيذه ويتطلب منه مصابرة فى أدائه واحتمالاً لما يحرمه مما يرغب ويشتهى .

٣ ـ أنه قد يتطلب شيئاً غير قليل من الشجاعة الأدبية ومواجهة الخصوم لا سيما إذا كان الواجب يتعلق بالدعوة إلى الإصلاح .

٤ ـ أنه قد يعرض المرء للتضحية بالآمال والجهد والوقت والمنصب حفظاً للكرامة وحباً فى الحق بل قد يستلزم التضحية بالنفس ذاتها متى كان فى ذلك الفداء خير الوطن والإنسانية .

أنواع الواجب :

تنقسم الأمور التى تتعلق بأداء الواجب إلى ثلاثة أنواع عادة هى الواجبات الشخصية التى تتعلق بواجبات المرء نحو نفسه وواجبات اجتماعية تتعلق بواجبات الفرد نحو مجتمعه وواجبات دينية تتعلق بواجبات المرء نحو خالقه . وهذا التقسيم لا يعنى انفصال كل نوع عن الآخر انفصالاً تاماً وإنما هو من أجل المعالجة العلمية . ذلك أن الأنواع الثلاثة تتداخل وتتصل فيما بينها . ويمكن أن ينظر إلى الواجبات الدينية على أنها واجبات فردية واجتماعية أيضاً ، لشمول ديننا الإسلامى لكل هذه الأمور . فهو ينظم أمور الدين والدنيا فى كل الجوانب .

وتشمل الواجبات الشخصية واجبات المرء نحو جسمه ونفسه وعقله وما يتصل بذلك من أمر العناية بصحته وغذائه ونظافته وملبسه وتعليمه واستمتاعه بملذات الحياة التى شرعها له الله وتهذيب نفسه وأخلاقه وسلوكه ، وعدم الإفراط أو التفريط فى كل هذه الأمور . وتشمل الواجبات الاجتماعية ما يتعلق بواجبات الفرد نحو أسرته سواء كان زوجاً أو زوجة وأبا أو أماً وإبناً أو إبنة . فهناك واجبات للزوج نحو زوجته وللزوجة نحو زوجها وللآباء نحو الأبناء وللأبناء نحو الآباء . وهناك واجبات المرء نحو وطنه وأمته الإسلامية بالذود والدفاع عنها ضد أى عدوان أجنبى وخدمتها والعمل على ما فيه خيرها وتقدمها . وهناك واجبات المرء نحو الإنسانية جمعاء . فقد خلقنا الله شعوباً وقبائل لنتعارف وليحب بعضنا بعضاً دون تعصب ضد أى جنس أو قومية أو دين أو مذهب . وعلى الفرد أن يسهم من موقع مسئوليته فى سبيل العمل على تقدم المجتمع الإنسانى والحضارة الإنسانية العالمية .

أما الواجبات الدينية فهى فى مفهومها الواسع تشمل كل ما سبق . أما فى مفهومها الضيق فتشمل واجبات الإنسان نحو ربه وخالقه . وما يتصل بذلك من أمر طاعته وعبادته واتباع أوامره واجتناب نواهيه وأداء فرائضه وحمده وشكره على نعمائه .

كانط وأخلاق الواجب :

يعتبر كانط الألمانى من أشهر فلاسفة الغرب فى المباحث الأخلاقية وقد عرفت فلسفته بأخلاق الواجب كما أشرنا وهو يرى أن يكون الباعث على الفعل الأخلاقى هو الواجب وليس أى باعث آخر . ولا يكفى عند كانط أنه يقوم المرء بعمل الواجب بل عليه أيضاً لكى يكون عمله صحيحاً من الناحية الأخلاقية أن يعمله بدافع أنه الواجب الذى يتحتم عليه عمله . فعمل الخير وأعمال البر والإحسان تكون عنده صحيحة من الناحية الأخلاقية إذا كانت بدافع الواجب الذى يشعر به الغنى نحو الفقير وليس بدافع حب الفخر أو التظاهر . ويبدو رأى كانط مصيباً فى هذا الاتجاه ومتمشياً مع النظرة الإسلامية فى أن الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى . أما ما ذهب إليه كانط من التمييز بين ما يسميه مشروعية العقل وأخلاقيته فلا نتفق معه عليه . بل ولا تتفق النظرة الإسلامية أيضاً مع ما يذهب إليه . فهو يرى أن الفعل إذا جاء متمشياً مع تشريع سماوى أو قانون وضعى أو بدافع ضمير الفرد أو عاطفة الرحمة والشفقة وبدافع الحرص على مركزه الاجتماعى فإنه يكون مطابقاً للقانون الخلقى لكنه عار فى نظر كانط عن كل محتوى أخلاقى لأنه ليس صادراً بدافع الواجب . ومن هنا يكون الامتناع عن السرقة بأى دافع من هذه الدوافع فى نظره ليس فعلاً أخلاقياً . وكذلك التاجر الذى يعامل زبائنه معاملة أمينة لا يكون فعله أخلاقياً اذا كان نابعاً من مصلحته كتاجر وليس نابعا من مبدأ الواجب الذى يملى عليه عدم رفع ثمن السلعة أو زيادة سعرها (فيصل بدير عون : ص ١١٦ - ١١٧) ومن الصعب أن نتفق مع كانط فى هذه النظرية المغرقة فى المثالية والبعيدة عن الواقعية ومن الصعب أيضاً أن نقبل رفض كانط للفعل الأخلاقى إذا جاء متشمياً مع الواجب لكنه لم يصدر بدافع الواجب . ويكفى أن يكون العقل متمشياً مع الواجب لنحكم عليه بأنه أخلاقى مرغوب بصرف النظر عن كونه نابعاً من دافع الشعور بالواجب أم لا . فالعبرة هنا يجب أن تكون بواقع العمل نفسه . وهذا الموقف يختلف عن الموقف السابق الذى أشرنا إليه خاصاً بعمل الخير والبر أو الإحسان . والواقع أن كانط لا يدخل فى حسابه ما يترتب على الفعل من نتائج نافعة أو ضارة فهو لا يقيم وزناً

من الناحية الأخلاقية لنتائج الفعل أو ما يؤدى إليه . وهو بهذا يختلف مع التجريبيين وأصحاب مذهب المنفعة العامة الذين ينظرون إلى الجانب الأخلاقى للفعل على أساس ما ينتج عنه ويترتب عليه من خير أو شر ونفع أو ضر ولذة أو ألم .

الأخلاق عند فلاسفة الغرب وفلاسفة المسليمن :

الأخلاق عند فلاسفة الغرب أخلاق دنيوية تنظم علاقة الفرد مع الآخرين وسلوكه فى الحياة الدنيا بصفة عامة . وهى تقوم على جانبين رئيسيين : جانب الحق وجانب الواجب . فكل حق يقابله واجب . ولذلك ترتبط الحقوق بالواجبات ولكي يستمتع الإنسان بحقه عليه أن يؤدى واجبه . والواجب قد يمليه عليه القانون وقد يميله عليه العرف الاجتماعى وقد تمليه التقاليد والثقافة السائدة وقد يمليه الضمير الإنسانى .

أما الأخلاق فى الإسلام وعند فلاسفة المسلمين أخلاق دنيا ودين وتشمل جميع أوجه النشاط الإنسانى وسلوكه فى الحياة الدينوية فى ارتباطه بالحياة الأخروية . وعلى هذا فالأخلاق الإسلامية تنظم علاقة الإنسان مع نفسه ومع بنى جنسه من أفراد مجتمعه ومع غيره من المجتمعات الإنسانية جمعاء والكون بكامله . وأخيراً ووليس بآخر تنظم علاقة الإنسان مع ربه وخالقه .

الفرق بين الأخلاق والسلوك :

الأخلاق صورة النفس الباطنة والسلوك هو صورتها الظاهرة التى تدل عيها ونحن نستدل على طبيعة أخلاق المرء بسلوكه الظاهر .

الاتجاهات النظرية للأخلاق :

يمكننا أن نميز ثلاثة اتجاهات رئيسية فى النظر إلى الأخلاق :

- الاتجاه الأول هو الاتجاه الروحى الذى يعتبر الغاية من الأخلاق ، هو التحلى بالفضيلة وتهذيب النفس وترويضها والسمو بالروح وتصفيتها من الشوائب . ويمثل هذا الاتجاه أهل التصوف أو المتصوفون .

- الاتجاه العقلى فى الأخلاق ويتزعمه المعتزلة كما يمثله ابن سينا وابن مسكويه . فالمعتزلة يرون أن الحسن ما حسنه العقل والقبح ما قبحه العقل وبنوا التكليف على العقل . والمعروف أن أرسطو هو أصل الاتجاه العقلى فى الأخلاق ، وقد ذهب إلى القول فى كتاب الأخلاق بأن الفضيلة مقترنة بالعقل.
- الاتجاه الروحى العقلى الذى يجمع بين الاتجاهين السابقين ويمثله حجة الإسلام الإمام الغزالى .

هل الأخلاق فطرية أم مكتسبة :

هناك وجهتا نظر متعارضتان فى النظرة إلى الأخلاق الإنسانية بصفة عامة . إحداهما تقول بأن الأخلاق فطرية لأن الإنسان يستطيع أن يميز بفطرته بين الخير والشر وبين ماينبغى عمله وما لا ينبغى . ويمثل هذا الرأى المثاليون وعلى رأسهم أفلاطون . فهناك أخلاق السادة وأخلاق العبيد لأن الناس خلقوا إما سادة وإما عبيداً فى نظره . كما أن بعض الناس خلقوا أخياراً وبعضهم خلقوا أشراراً . وهذه النظرة تجعل من الطبيعة الإنسانية شيئاً جامداً لا يمكن تغييره أو تعديله أو إصلاحه وهذا عكس ما هو حادث بالفعل . والواقع أن الإسلام ينظر إلى طبيعة الإنسان على أنها محايدة بالفطرة وتكتسب لونها من خلال التنشئة والتربية . فقد ورد عن النبى (ص) قوه : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » وورد عنه أيضاً قوله (ص) : « حسنوا أخلاقكم » وقوله : (ص) « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . فهذا يدل على أن النظرة الإسلامية إلى الأخلاق على أنها مكتسبة وتتعدل وتتحسن وينصلح حالها بالتوجيه . وهذا يجرنا إلى الكلام عن وجهة النظر الثانية التى نرى أن الأخلاق مكتسبة وليست فطرية . وكون الأخلاق مكتسبة يؤكد أهمية تعليم وتربية النشء تربية صالحة وتوجيهه من البداية إلى طريق الحق والخير على أساس سليم وإبعاده عن قرناء السوء . لكن الإنسان لا يتعلم شيئاً إلا اذا كان مستعداً له غير ممتنع عليه . كالبذرة فى الأرض لا تنبت إلا اذا كانت الأرض صالحة ومهيأة لها ولنموها . ومن هنا كان اختلاف الناس فى تقبل الأخلاق معتمداً على استعداد

كل منهم لتقبل هذا الخلق أو ذاك . وليس جميع الناس على درجة واحدة أو مستوى واحد فى تقبل الأخلاق الحميدة أو غيرها .

علم الأخلاق والتربية الأخلاقية :

ينبغى أن نفرق بين التربية الأخلاقية وعلم الأخلاق . فالأولى تؤكد على السلوك والممارسات الأخلاقية . فى حين أن علم الأخلاق يؤكد على المعرفة ودراسة الأصول والمبادئ بطريقة عقلانية . والتربية الأخلاقية الصحيحة هى التى تبدأ بالتأكيد على الممارسة والسلوك لا على الأخلاق النظرية والمعرفية فهذه الأخيرة تأتى فى مرحلة لاحقة . وإن البدء بها يعيق التطور الأخلاقى للطفل وإكتسابه للسلوك الأخلاقى بطريقة عملية . وهناك طريقة مباشرة للتربية الأخلاقية تقوم فى أساسها على التعاليم الدينية . فإذا كان الله قد أوضح لنا طريق الصواب فعلى المدرس أن يدل تلاميذه عليه بصورة مباشرة .

وهناك طريقة أخرى غير مباشرة تعتمد على تعليم التلاميذ فى مواقف أخلاقية بصورة عرضية عن طريق النشاطات التى تشغل إهتماماتهم بصورة رئيسية . فإذا كانت هذه المواقف الأخلاقية عرضية فى الدراسة والعمل واللعب فإن الأطفال سيتعلمون من خلالها باستمرار قيماً متعددة تتعلق بالتعاون والنظام والصراحة والوفاء وغيرها . ويستطيع المدرس أن يجذب انتباه تلاميذه للقيم الأخلاقية فى أثناء درسه وفى تعامله معهم . وسواء كان التعليم الأخلاقى هدفاً مباشراً أو غير مباشر لأى درس فلا شك أن معظم المعلمين على اختلاف فلسفاتهم سيتفقون على أن الجهود التى تبذل فى التربية الأخلاقية لن تكون غير فعالة إلا اذا توافرت الفرص للطفل ليمارس ما يتعلمه فى المدرسة من عظات وعبر .

إننا لا نستطيع تعليم الجيل القادم أن يكونوا خيرين عن طريق عبارات لفظية جوفاء يرددونها دائماً . بل يلزمهم أن يمارسوا ذلك فى مختلف المواقف ليتعودوا بأنفسهم على المثل الأخلاقية . وإلى جانب تعلمهم الدروس الأخلاقية فى المدرسة التى هى جزء من الحياة يجب أيضا أن تكون كل قوى المجتمع مساندة لهذا التعليم . وهذا يعنى أن تكون التربية الأخلاقية مسئولية جماعية للأسرة والمدرسة والمجتمع برمته .

القيمة الخلقية :

تعتبر القيم معايير للحكم على العمل أو السلوك أو الفعل . وهناك أنواع مختلفة من القيم فهناك القيم الفردية عندما يكون للفرد تفسير خاص به للقيمة كالقيم المتعلقة بحريته الفردية وفلسفته فى الحياة . وهناك القيم الجماعية التى تعم المجتمع . وهناك القيم المطلقة التى لا يختلف عليها اثنان مثل الحق والخير والجمال والعطف والرحمة . وهناك القيم النسبية التى تختلف باختلاف الزمان والمكان . وهذه القيم النسبية تختلف باختلاف تفسير القيم المطلقة فنحن لا نختلف على أن الحق والخير جميل ولكن عندما نتساءل عما هو الحق أو الخير أو العدل نجد تفسيرات مختلفة تصدر عن منطلقات فلسفيه مختلفة وتجربة زمانية ومكانية مختلفة . وهناك القيم الاجتماعية والقيم الاقتصادية والقيم الدينية أو الروحية والقيم المادية والقيم الجمالية والقيم العقلية والقيم العاطفية . وهذا لا يعنى وجود حدود فاصلة قاطعة بينها وإنما هى تتصل فيما بينها وإن كان لكل منها صفة غالبة عليها . وقد يحدث نتيجة تعدد القيم واختلاف مصادرها وتفسيراتها وجود تناقض وصراع بينها وهذا يعمل بدوره على تفكك المجتمعات وانحلالها وعدم استقرارها . ومن هنا كان من الضرورى أن يتحقق الانسجام والتواؤم بين مختلف القيم فى داخل المجتمع الواحد . ويرى بعض فلاسفة الأخلاق أن الواجب أو نداء الضمير يمكن أن يساعد فى التغلب على صراع القيم وتناقضها . وهناك وسيلة أخرى هى توحيد مصدر القيم . فهذا أيضاً يقلل من تصارعها وتناقضها . وهناك القيم المتصلة بالتعاطف أو المشاركة الجماعية أو الوجدانية أو العاطفية . فالفرحة مشاركة وجدانية للآخرين فى السعادة . وقد يجد الإنسان سعادته فى جلب السعادة للآخرين والتعاطف معهم ومشاركتهم أفراحهم وأحزانهم . والألم أو العذاب مشاركة للآخرين فى أحزانهم . ولولا هذا الألم والعذاب لما وجد التراحم بين الناس ولما عرفت القلوب طعم الرحمة والرأفة . ويرتبط بذلك أيضا « الحب » كقيمة انسانية رفيعة دعت إليها الديانات السماوية وحثت عليها لما لها من أهمية كبري فى ترابط الناس ووحدتهم . ويعتقد الفيلسوف الألمانى المثالى المعروف « هيجل » أن عاطفة الحب وحدها هى

التى تعطينا الاحساس بالترابط والوحدة . كما أن الشاعر الهندى المعروف طاغور كان يدعو فى أشعاره ويتغنى بالحب الذى ينمو فى ظل الحرية بعيداً عن القيود التى تفرضها الغريزة على الإنسان . وهذه الحرية تدفع إلى احترام الآخرين وتقديرهم (انظر نازلى اسماعيل حسين : ١١٩ - ١٢٠) .

سمو وتسامى القيم :

من أهم خصائص القيم سموها وتساميها وعلوها وارتفاع قدرها ومكانتها فوق البشر . وهناك ثلاثة جوانب لتسامى القيم : جانب أخلاقى يفرض على الإنسان احترامها وعدم مخالفتها . وهذا الاحترام نابع من الضمير الأخلاقى وشعور الإنسان بعلو القيم وتساميها أما الإنسان الذى لا يشعر بهذا الاحترام فإنه لا يعبأ بالالتزام بها .

والجانب الثانى هو الجانب الاجتماعى . فالقيم من صنع المجتمع والمجتمع أكبر من الفرد وله قوة نفوذ عليه . ومن هنا يرى الفرد فى القيم الاجتماعية تساميها وعلوها الذى يفرض عليه احترامها والالتزام بها . وهناك جانب القيم المطلقة التى تتسامى بذاتها ولا يختلف عليها إثنان فى أى زمان أو أى مكان مثل قيم الحق والخير والجمال . وعندما تترجم هذه القيم المطلقة إلى مواقف إجرائية أو قيم نسبية فانها تفقد تساميها وعلوها المطلق وتصبح محلاً للاختلاف وعدم الاتفاق . ولكن يظل لها بعض تساميها وعلوها فى داخل المجموعة النسبية الواحدة .

مصادر القيم الخلقية :

تختلف مصادر القيم الخلقية والإلزام الخلقى باختلاف الثقافات والمجتمعات فلكل ثقافة أو مجتمع مصادره الخاصة التي يستقى منها قيمه الخلقية ويحدد على أساسها إطاره الأخلاقى . ويمكن القول بصفة عامة بأن من أهم مصادر القيم الخلقية للثقافات المختلفة الدين أو الشرائع السماوية أو غير السماوية والأيديولوچيات الفكرية أو الفلسفية أو الاجتماعية السائدة ، والعرف والتقاليد والقوانين الوضعية والمدنية . ويصدق ذلك على الدول الإسلامية كما يصدق على غيرها من الدول . بين أنه بالنسبة للدول الإسلامية نجد أن القرآن الكريم يعتبر

أهم مصدر لقيمنا الأخلاقية . وهو الينبوع الرئيسى والذى نستمد منه أحكامنا وواجباتنا وقيمنا الخلقية . وقد بين الله للإنسان طريق الصواب وطريق الخطأ من خلال أوامره ونواهيه . وزوده بالعقل والحواس ليكون بصيراً بنفسه . قال تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » . وقال أيضاً « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين » و « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » و « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى» . ويرى علماء المسلمين أن قضية التحريم والتحليل فى الإسلام تتمشى مع الفطرة الإنسانية التى فطر الله الإنسان عليها كما تتمشى مع طبيعة العقل البشرى ولذلك فإنهم ينظرون إلى مفهوم « العدل » على أنه ما يقتضيه العقل من الحكمة وهو إصدار الفعل على وجه المصلحة أو الصواب . فالقتل والسرقة والكذب حرام لأنها أفعال يرى فيها الشرع أنها منافية للفطرة والعقل ، والقصاص والأمانة والصدق حلال لأنها أفعال مشروعة بحكم تمشيها مع الفطرة والعقل . وعندما يقصر الإنسان فى حق ما أمره به الله أو نهاه عنه فإن الله سبحانه وتعالى يحاسبه ويعاقبه على تقصيره . وإن أخطأ وتاب فإن الله يعفو عنه كما يعفو عن كثير .

والمصدر الثانى للقيم الخلقية الإسلامية هو السنة المطهرة فهى مكملة للتشريع الرئيسي وهو القرآن الكريم . فقد كان عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى «إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالملأ الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى » .

وقال تعالى فى سورة آل عمران « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . وقد دعى المسلمين إلى الأخذ بكل ما جاء به الرسول عليه السلام . وهناك حديثان هامان بصفة خاصة لأنهما مكملان لما أحله الله أو حرمه علينا من الأكل والطعام الأول هو : « أحلت لكم ميتتان ودمان . أما الميتتان فهما السمك والجراد وأما الدمان فهما الكبد والطحال » . الثانى هو « حرم عليكم كل ذي ناب من السبع وكل ذى مخلب من الطير » . وهذا الحديث رغم خطورة فحواه - لأن بدونه يباح أكل كل ما يدب على الأرض من سباع وطيور جارحة وهوام - هناك رأى لا يجيز

العمل بهذا الحديث على أساس أنه ضعيف أو ليس بحديث رغم وروده في الصحيحين . وعلى أساس ذلك أشار الإمام محمد الغزالى فى كتابه عن الإسلام خارج حدوده إلى أن لحم الكلب لا يوجد دليل شرعى على تحريم أكله . وقد تألم كاتب هذه السطور عند قراءة هذا الرأى وكان وقتها أستاذاً فى جامعة قطر حيث يعمل فضيلة الشيخ الدكتور / يوسف القرضاوى عميد كليه الشريعة آنذاك . وبمناقشتى معه حول الموضوع ثنى على كلام الشيخ الغزالى وذكر أبياتاً شعرية عن مدح المالكية فى لحم الكلب . ولما قلت له إن لعاب الكلب نجاسه يتطهر منها بالغسل سبع مرات آخرها بالتراب فقال لى النجس لعابه فقط . فتعجبت ولم أقتنع ، وقلت فى نفسي اذا كانت القاعدة الفقهية المعمول بها : ما يسكر قليله فكثيره حرام . فلماذا لا يكون ما ينجس قليله يكون كثيره حراماً . وقلت فى نفسى أيضاً أليس من المعمول به فى بعض المذاهب الفقهية الأخذ بالأحاديث الضعيفة فى الجوانب الأخلاقية لا سيما فى هذا الحديث الهام اذا كان ضعيفاً على رأيهم ؟ ويجب أن نشير إلى أن هذا الحديث قد استند إليه الشيخ القرضاوي نفسه في كتابه الحلال والحرام في الإسلام . أعود إلى نفسى لأبعث فيها الطمأنينة والرضى فأقول إن الله طيب لا يحب إلا الطيب ويكره ما عداه من الخبائث وأعيد ثقتى بالنفس عندما أتذكر أيام شبابى عندما درست هذين الحديثين فبما درست فى كلية دار العلوم على يد علماء مسلمين أفاضل جزاهم الله خير الجزاء . لقد كان الرسول (ص) كما قال اله فى سورة الأحزاب « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله باذته وسراجاً منيراً. ونود أن نلفت النظر هنا إلى أن النبى (ص) قد أشار فى أحاديثه إلى أنه ينبغى علينا أن نميز بين نوعين من أفعاله وأقواله : النوع الأول وهى الأقوال والأفعال الموحى بها إليه من الله عز وجل . وهذه لا جدال فيها اذ يجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها على أنها من تمام الدين والشرع . النوع الثانى هى الأقوال والأفعال التى كان يقوم بها الرسول باعتباره بشراً يسرى عليه ما يسرى عليهم باستثناء واحد عبر عنه الشاعر بقوله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم . . فإن المسك بعض دم الغزال

ولقد ورد عن الرسول (ص) قوله « إذا أمرتكم بشئ من رأيى فإنما أنا بشر ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على اله » . وورد عنه قوله لبعض جماعته فى موقف ما وقد نهى عليه فى الصلاة « إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى » . فهو غير معصوم من الخطأ كبشر لكنه معصوم من الخطأ فيما بلغ عن ربه . وقد لقى النبى التوجيه من ربه عندما مال لرأى أبى بكر بأخذ الفداء من أسرى بدر من المشركين وغلبه على رأي عمر الذى أشار بقتلهم فنزل قوله تعالى فى سورة الأنفال « وما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » كما أن الله سبحانه وتعالى عاتبه على استغفاره لعمه أبى طالب وقد أبى عليه الرسلام فنزل قوله تعالى فى سورة التوبة « وما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » . ويقول الشيخ محمد عبد الله دراز « إن النبى (ص) لا يمكن أن يستمر مطلقاً على رأى خاطئ وإذا لم يعد إلى الصواب بالطريق المعتاد فإن الوحى يتدخل حتما لتصحيح خطئه واقامته على الصراط المستقيم والا وقعت الجماعة كلها فى الخطأ والتزمت باتباعه فى طريق الضلال . يضاف إلى ذلك أن أئمة علماء المسلمين يفهمون ما ورد فى السنة ويفسرونه فى ضوء ما ورد فى القرآن الكريم والتوجهات العامة لأحكامه .

كما درج علماء لمسلمين على استقصاء أحاديث الرسول (ص) والعمل بالمتواتر والصحيح منها وترك ما هو مدسوس أو مختلق عليه (ص) . وهكذا تكون من متطلبات المصدر الثانى للتشريع الإسلامى تأصيل ما ورد عن الرسول (ص) والتحقق منه وهو فى هذا يختلف عن المصدر الأول للتشريع وهو القرآن الكريم . وإلى جانب هذين المصدرين الرئيسيين للتشريع الإسلامى هناك مصدران ثانويان آخران هما الإجماع والقياس وكلاهما يقوم على المصدرين الرئيسيين السابقين فى ضوء الدراسة الفاحصة لمتطلبات الموقف الجديد . وهناك أيضا باب الاجتهاد وهو مفتوح أمام علماء المسلمين . وهذه المصادر هى فى الواقع مصادر رئيسية للقيم الأخلاقية الإسلامية .

الوسائل والغايات :

ترتبط الوسائل بغاياتها . فالغايات النبيلة والمقاصد الشريفة تكون وسائلها نبيلة وشريفة وقد تتعدد الوسائل لتحقيق غاية واحدة على طريقة أن كل الطرق تؤدى إلى روما . وهناك مثل أو مبدأ يقول بأن الغاية تبرر الوسيلة . وهذا قول لا يمكن أن يقبل على علاته وإنما يجب أن توضع له الضمانات حتى لا ينحرف عن مساره الطبيعى ويصبح مبدأ ميكيافيليا مرفوضاً . فالغاية اذا كانت شريفة ومقبولة أخلاقيا والوسيلة شريفة ومقبولة أخلاقيا فلا ضير أن تبرر الغاية الوسيلة. أما اذا كانت الغاية مقبولة اجتماعياً والوسيلة غير شريفة وغير مقبولة إجتماعياً يصبح الأمر مرفوضاً . فاذا كانت الغاية أو الهدف تحقيق الغنى أو الجاه أو جمع المال وتكون الوسيلة هى السرقة والنهب والاستيلاء على أموال الناس ، عندئذ يكون هذا المبدأ ميكيافيليا ومرفوضاً أخلاقياً . وأخلاقنا الإسلامية تنبذ مثل هذه المبادئ وترفضها لأنها تتعارض مع طبيعة الأخلاق الإسلامية التى تقوم على الحق والخير والعدل والجمال .

الفرق بين الأوامر والنواهى :

الفرق الرئيسى بين الأوامر والنواهى أن الأخيرة تحريم مطلق يسرى فى كل مكان وزمان وفى كل الأحوال وبدون أى استثناءات إلا فى الحالات التى حددها الإسلام وهى حالة الخطأ والنسيان وما استنكره عليه الإنسان . أما الأوامر فليست لها هذه الصفة المطلقة من الإجبار والحتمية . وانما تتمشي حسب ظروف الفرد . فإذا كان مريضاً أو على سفر فى حالة الصوم مثلاً فعدة من أيام أخر . وللمصلى أن يجمع ويقصر فى صلاته فى حالة سفره . وباختصار تخضع الأوامر لما ذكره رب العزة فى كتابه الكريم « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

القرار الأخلاقى الرشيد :

إن الموقف الأخلاقى يطرح أكثر من بديل للتصرف فعلى سبيل المثال فى موقف ما قد يكون البديلان المطروحان هما : إدفع بالتى هى أحسن ، أو الشر بالشر ، وفى موقف آخر قد يكون البديلان : أصنع جميلاً ولو فى غير موضعه أو « من يصنع المعروف فى غير أهله يندم » وغيرها من الأمثلة . فبأى البديلين يأخذ

الفرد فى الموقف الأخلاقى ؟ وما هى المعايير الأخلاقية التى يهتدى بها فى اختيار أفضل البديلين ؟ وهنا يكون دور التربية لأن مهمة التربية فى الجانب الأخلاقى أن تزود الفرد بما يساعده على اختيار البديل الأفضل والمناسب للموقف. إن أحكامنا وقراراتنا تعتمد فى مدى صحتها ومناسبتها على مدى فهمنا للموضوع وما نعرفه عنه من معلومات واختلاف الحكم أو القرار قد ينتج عن اختلاف فى الفهم واختلاف فى درجة المعلومات المتاحة ، ومن هنا كان من الضرورى للوصول إلى قرار سليم أن يتحرى الإنسان فهم الموضوع من جوانبه المختلفة وهذا يتطلب الحصول على كل المعلومات الممكنة التى تساعد الفرد على هذا الفهم . وتعتمد أحكامنا وقرارتنا أيضا فى اختلافها وتباينها على اختلاف القيم والمعتقدات العامة للفرد وما يعتقد أنه صحيح أو غير صحيح . ويبدو هذا بوضوح فى القرارات الأخلاقية التى نتخذها فى المواقف المختلفة ، وقد يكون القرار مصحوباً بالمعاناة الأخلاقية عندما تكون البدائل المتاحة متعارضة أو حُلوها مُر أو مشحونة بالانفعالات والمشاعر المتعارضة والضغوط الاجتماعية المختلفة .

ودور التربية ينبغى أن يتركز على مساعدة الفرد على تكوين فلسفة رشيدة له فى الحياة توجهه بصفة عامة وتجعلة قادراً على حسن التصرف فى المواقف المختلفة . ويمكن القول بصفة عامة أن هناك عوامل رئيسية تحدد اتجاه القرار الذى يتخذه الفرد من أهمها :

- النفعية والمصلحة وبالعكس الضرر والخسارة .
- سمو المقاصد والغايات وبالعكس سوء النوايا والمقاصد .
- النتائج المحتملة لأعمالنا وأفعالنا سواء كانت مادية أو معنوية من سعادة أو ألم أو فرح أو حزن .